الحلقة 6

# القتال دام أربعةَ أيام وثلاثَ ليال

إعداد: هشام المنشاوي

# هزيمة الفيلة.. انتصار المسلمين على الفرس في معركة القادسية

معركة القادسية أحد معارك الفتح الإسلامي لفارس وقعت في 13 شعبان 15 هـ (16–19 نوفمبر 636)، بين المسلمين بقيادة سعد بن أبي وقاص والإمبراطورية الفارسية بقيادة رستم فرخزاد في القادسية، انتهت بانتصار المسلمين ومقتل رستم. وكانت أحد أهم المعارك لفتح العراق. وشهدت المعركة تحالف للإمبراطور الساساني يزدجرد الثالث مع الإمبراطور البيزنطي هرقل الذي زوج حفيدة مانيانغ إلى يزدجرد كرمز للتحالف.

خلال فترة حياة النبي محمد، حكم بلاد فارس الإمبراطور كسرى الثاني، الذي شن حربا ضد الإمبراطورية البيزنطية للانتقام من مقتل الإمبراطور موريس. هجم الجيش الساساني وأستولوا على كل من سوريا، مصر، والأناضول. في عام 610 تولى الإمبراطور البيزنطي هرقل الحكم بعد فوقاس وقاد البيزنطيين إلى حرب الاسترداد، ونجح في استعادة الأراضي المحتلة من قبل الإمبراطورية الساسانية. وهزم جيشا فارسيا صغير في معركة نينوى وتقدم نحو قطسيفون. بعد نجاح انقلاب قام به أحد أبناء كسرى وهو قباذ الثاني، حيث أمر بإعدام والده وجميع أشقائه وغير الأشقاء، ومنهم مردان شاه، الابن المفضل لكسرى الثاني والذي كان وريثا للعرش الساساني. كانت خطوته التالية صنع السلام مع الرومان وإعادة جميع الأراضي المحتلة. في نفس الوقت هاجم الأتراك شمال بلاد فارس بجيش ضخم. فأمر هرقل جيوشه بالتراجع بعد أن تم توقيع اتفاق مع قباذ الثاني. ووفقا للاتفاقية، عادت جميع الأراضي البيزنطية التي استولى عليها الفرس.

وقتل كسرى الثاني في قصره بواسطة ابنه قباذ الثاني سنة 628. وأعدم قباذ الثاني إخوته الثمانية عشر، وبدأ المفاوضات مع هرقل، لكنه توفي فجأة بعد أشهر قليلة من توليه الحكم بسبب إصابته بالطاعون. وهكذا بدأت الحرب الأهلية. عين أردشير الثالث وهو ابن قباذ الثاني البالغ من العمر سبعة سنوات لكنه قتل بعد 18 شهرا من قبل الجنرال فرخان الذي كان يسمى شهربراز. كان شهربراز قد استولى على دمشق والقدس من الإمبراطورية البيزنطية في عامي 613 و614. بعد استسلام الفرس في عام 628، تورط شهربراز بمؤامرة من المحكمة الساسانية. وفي عام 629 فشل في غزو أرمينيا ومواجهة قوات الخزر–الغوكتورك بقيادة تشوربان طرخان. قتل شهربراز في يوم 9 يونيو 629 وخلفه ابنة كسرى الثاني بوراندخت. وكانت تحتل منصب الحاكم ال26 لفارس، وكانت فترة حكمها من 17 يونيو 629 حتى 16 يونيو 630، وتعد واحدة من اثنتين فقط من النساء الاتي جلسن على العرش الساساني، حيث أن الأخرى كانت شقيقتها آزرمي دخت. وقد أخذت هذا المنصب على أساس أنها ستتنازل ليزدجرد الثالث عند بلوغه سن الرشد. حاولت تحقيق الاستقرار في الامبراطورية بتنفيذ العدالة وإعادة بناء البنية التحتية وتخفيض الضرائب وسك العملات، ومعاهدة السلام مع الإمبراطورية البيزنطية. كما انها عينت رستم فرخزاد باعتباره القائد العام في الجيش الفارسي. ولم تكن ناجحة إلى حد كبير في استعادة القوة في السلطة المركزية بسبب الحروب الأهلية، وبعد ذلك يقال أنها استقالت أو اغتيلت بعد فترة وجيزة. ثم حلت محلها شقيقتها آزرمي دخت وبالتالي حل محلها هرمز الرابع، أحد نبلاء المحكمة الفارسية.

بعد خمس سنوات من الصراع الداخلي على السلطة، أصبح يزدجرد الثالث (حفيد كسرى الثاني) إمبراطورا في الثامنة من عمره. وكانت الركائز الحقيقية للدولة على كل من الجنرال رستم فرخزاد وفيروز خسرو (المعروف باسم الفيرزان)، وكانت بينهما خلافات وشحناء.

## الصِّدام العسكري بين المسلمين والفُرس في جبهة العراق

كان الصّدام العسكري بين المسلمين والفُرس قد قطع شوطًا في جبهة العراق في خلافة أبيَ بكر وأوّل خلافة عمر لكنّه لم يبلغْ مرحلةَ اللّقاء العسكري الحاسم بين الطرفَين، فانتصار المسلمين في معركة البويب لم يُنه الوَجودَ السياسي والعسكري للفُرْس في العراق، ويمكّن الدعوة الإسلامية أن تشقَّ طريقَها إلى الناس في العراق بأمْن وسلام. فكان لا بدّ مَن لقاء عسكري حاسم يُنهي الوجود السياسي والعسكري للفُرْس في العراق، ويمكّن الدعوة الإسلامية أن تشقَّ طريقها إلى الناس في العراق، ويجعل العراقَ دار إسَلام، وأمْن وسلام، فكانتْ معركة "القادسية" ذلك اَللّقاء العسكري الحاسم.

## إعداد الجيش الإسلامي

استجاب عربُ الجزيرة لاستنفار أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فأخذتْ قوافلهم تحطُّ بالمدينة، فازدحمتْ طرق المدينة وسككُها بالجند، فخرج عمر بالناس، وَنزل على ماء يقال له (صرار)، فعسكر به. كان رأي عامّة الجند أن يتولّى الخليفة قيادة الجيش، فبعث عمر إلى أهل الرأي يستشيرهم في المسألة، فاجتمع إليه وجوه أصحاب الرسول وأعلام العرب وفرسانهم، فاستشارهم في ذلك، فاجتمع مَلؤُهم على أن يقيمَ عمر في المدينة، ويُسندَ قيادةَ الجيش إلى واحد من الصحابة، ويمدّه بالجنود، وأشاروا عليه بسعد بن أبي وقّاص؛ لصُحبته وسَبْقه، ولجرأته وشجاعته في القتال، فأرسل إليه عمر، فلمّا حَضَر عنده ولاّه قيادة الجيش، وقال له:"إني قد وليتُك حرْبَ العراق، فاحفظْ وصيتي، فإنك تَقْدَم على أمر شديد كريه، لا يخلص منه إلاّ الحق، فعوّد نَفسَك ومَن معك الخير، واعلم أنّ عَتاد الحرْب الصبرُ، فاصبرْ على ما أصابك، تجتمعْ لك خشيةُ الله، واعلم أنّ خشية الله تجتمع في أمرين؛ طاعته، واجتناب معاصيه".

## عَمَاس وليلة الهَرير

في اليوم الأول الخميس 13 شعبان 15 هـ الموافق (16 نوفمبر 636)، صاح سعد بن أبي وقاص رافعًا صوته قائلاً: الله أكبر! فكبر من ورائه المسلمون جميعًا، وتحفز المسلمون للقتال، ثم يكبر سعد التكبيرة الثانية فتصطف الصفوف، وتُرفع السيوف من الأغماد، ويستعد الناس للقتال، ثم يكبر سعد التكبيرة الثالثة فتخرج كتيبة الفرسان أفضل مجاهدي المسلمين من ناحية القتال المهاري على أشد الخيول ضراوةً إلى ساحة القتال يطلبون المبارزة؛ ليحفزوا المسلمين وينشطوهم وتخفض الروح المعنوية للجيش المقابل عن طريق قتل أكبر عدد ممكن من الأبطال، وكان من أوائل من خرجوا من فرسان المسلمين للقتال ربيعة بن عثمان، وغالب بن عبد الله الأسدي، وعمرو بن معد يكرب، وعاصم بن عمرو التميمي، وكان أول قتال نشب بين ربيعة بن عثمان من قبيلة هوازن وأحد أشداء الفرس، وكان قتالاً شديدًا، وتقاتلا مدة كبيرة، وقتل ربيعة بن عثمان الفارسي بعد قتال عنيف، وكان أول قتيل من الفرس فيَ أرض القادسية فكبر المسلمون، وألقى الله الرعب في قلوب الفرس.

في اليوم الثاني الجمعة 14 شعبان 15 هـ الموافق (17 نوفمبر 636)، أصبح المسلمون على تعبئة واستعداد لاستئناف القتال، ومنازلة الفرس في يوم أغواث، وقد بدأ المسلمون يومَهم بنقْل شهدائهم إلى وادي مشرق ودفنهم في مقابر هُيئت لهم، ونقل الجريح إلى مكان هُيئ لعَلاجهم، وصلت رسالة من أبي عبيدَة بن الجَراح – أمير الجيوش الإسلامية في الشام– بعد أن انتصر على الروم في موقعة اليرموك؛ فقد كتب له عمر بن الخطاب أن يرسل مددًا من الشام إلى العراق لنجدتهم، فأرسل أبو عبيدة 6.000 مقاتل على مقدمتهم القعقاع بن عمرو التميميّ، وكان هذا سببًا عظيمًا في فرحة المسلمين واستبشارهم بالنصر؛ لأن القعقاع من أفضل المقاتلين المسلمين، ومن أشدهم ضراوة، قال عنه أبو بكر الصديق: إن صوت القعقاع في الجيش أفضل من ألف رجل.

في اليوم الثالث السبت 15 شعبان 15 هـ الموافق (18 نوفمبر 636)، كان أوّل شيء عمله المسلمون يومَ عَمَاس أن بدؤوا يومَهم بنقْل موتاهم إلى وادي المشرّق ودفنهم، ونقْل جَرْحاهم إلى مكان خُصّص لعلاجهم، أما قتْلَى الفرس فظلّت بيْن الصّفّين، وكان الفُرس لا يتعرّضون لموتاهم، فكان ذلك مما شدّ الله به المسلمين، وأوهن الفُرْس. كان القَعْقاع بن عمرو قد بات ليلةَ عَمَاس يُسرّب أصحابه إلى خارج مَيْدان المعركَة، دون أن يعلم به أحد، فلمّا أصبح الناس يومَ عَمَاس، أقْبَلوا مائةً مائةً، كل فِرْقة تتبع أختها،

## الاستنفار العام في جزيرة العرب

لَمّا علم أميرُ المؤمنين عمر بن الخطّاب –رضي الله عنه– باجتماع كلمة الفرس على يزدجرد وتتويجه ملكًا عليهم، وعلم أيضًا بعزْم قيادتي الفُرْس السياسية والعسكرية على حرْب المسلمين، وطرْدهم من العراق، والتصدّي للدعوة الإسلامية، أدْرك خطورةَ الموقفَ وأبعاده، وما سوف يُفرزه من آثار سلبية على سَيْر الدعوة الإسلامية في العراق، فقرّر عمر بن الخطاب مناجزةَ الفُرْس، ومنازلتهم في لقاء عسكري حاسم، يُنهي الوجود السياسي والعسكري للفرس في العراق، ويُمكّن الدعوة الإسلامية من الوصول إلى الناسَ في العراق بأمْن وسلام. فأعلن عمر حالةَ الطوارئ والاستنفار العام في جزيرة العرب، وذلك لإعداد جيش إسلاميّ كبير، فكتب إلى أمراء البلدان، ورؤساءِ القبائل في جزيرة العرب "يأمرهم ألا يَدَعُوا أحدًا له سلاحٌ أو فَرَس، أو نجدة أو رأي، إلاّ انتخبتموه، ثم وجهتموه إليّ، والعَجَلَ العَجَل". بَعَث سعد بن أبي وقاص –رضي الله عنه– إلى ملك الفُرْس وفدًا من أهل الرأي والمناظرة والجلد، يدعونه إلى الإسلام، وإلى إقرار الأمْن والسلام في المنطقة. ووصل الوفد إلى المدائن، والْتقى بقادة الفرس، فعَرَض عليهم الإسلام ودَعاهم إليه، وقد جَرَت بين رسل المسلمين وقيادة الفُرْس مناظرة ومحاورة، أدْلى كلٌّ منهما فيها بحُججه ووجهة نظره في المسألة، وقد جنح رسلُ المسلمين في مناظرتهم لقادة الفُرْس السياسيّين والعسكريّين إلى الحكمة والموعظة الحسَنة، غير أنّ قادة الفُرْس ظنُّوا أنّ جنوح رسل المسلمين إلى اللّين والحكمة والموعظة الحسنة في المجادَلة والمنَاظرة راجعٌ إلى ضَعْف دولة الخلافة الراشدة؛ وذلك بسبب استهزاء قادة الفُرس بعرب الجزيرة واحتقارهم، وبسبب جَهْلهم بالإسلام ودولته، فقد غرّتْهم قوتُهم، فركنوا إليها، وجنحوا إلى التهديد بالقوّة العسكرية، والتحدّي بدفْن المسلمين في خَنْدق "القادسية" فَي ساعة من نهار، فلم يُصغوا لدعوة الإسلام والأمْن والسلام. وانتهتِ المفاوضات بْين المسلمين وقيادة الفُرْس دون أن تحقّق أهدافَها الإسلامية في إقرار الأمن والسلامَ في المنطقة، فكان فشلُ المفاوضات بين المسلمين والفُرْس في تحقيق الأمن والسلام في المنطقة مما هيّج أمر "القادسية"، فأصبح اللّقاء العسكري بين المسلمين والفُرْس أمرًا لا مفرّ منه.

## فشل المفاوضات وبدء المعركة

لم تحقّق المفاوضات بين المسلمين وقيادتي اَلفُرْس السياسية والعسكرية أهدافَها الإسلامية في إقرار السلام في المنطقة، وكان لسلبية المفاوض الفارسي في المفاوضات دَورٌ رئيس في فشلها، وعلى الرغم من فَشَل المفاوضات في تحقيق الأهداف الإسلامية؛ إلا أنّ رسل المسلمين نَجحوا في تبليغ دعوة الإسلام إلى قادة الفُرْس، وفي إنذارهم وإقامة الحُجّة عليهم بوصول الدّعْوة إليهم.

عَبَر رستم بالجيش الفارسي نهر العتيق فنزل قبالة المسلمين على شفير العتيق، فكان عسكر المسلمين والفرس بين الخندق والعتيق. استعدّ سعد بن أبي وقّاص لمنازلة الفُرْس ومناجزتهم، فلمّا كان يومُ الاثنين 27 شوال 15 هـ، صلى سعْدٌ بالناس صلاةَ الظهر، ثم أمَر القرّاء أن يقرؤوا سورة الجهاد (الأنفال)، فلمّا قُرئت هشّت قلوبُ الناس، وذَرَفتْ عيونهم، ونزلت عليهم السكينة والطمأنينة، وتهيّأت نفوسُهم لقتال عدوّهم.

نَزَل سَعد ابن أبي وقاص قصر قديس وهو قصرٌ قديم غير حصين بين الصّفّيْن، فأشرف منه على الناس، لكنّ سعدًا لم يتمكّن من قيادة المعركة في الميدان لجروح أصابتْه في مقعدته وفخذيه، غير أنّه ظلّ يخطط للمعركة ويشرف عليها، ويتابعها من أعلى القصر، وبدأ بإدارة المعركة من فوق القصر، واستخلف على الجيوش خالد بن عرفطة العذري الذي كان من قادة المسلمين المهرة، فيقوم خالد بن عرفطة بقيادة الجيوش ويدير سعد بن أبي وقاص المعركة من فوق القصر متابعًا خالد بن عرفطة بالرسائل التي يرسلها إليه، فينفذها الجيش عن طريق خالد، واعترض بعض الناس على إمارة خالد بن عرفطة، فما كان من سعد إلا أن قام بالقبض على هؤلاء المشاغبين، وكان يتزعمهم أبو محجن الثقفي، وهو من أشد مقاتلي العرب ضراوة وكان يجيد الشعر الجهادي، وكان المسلمون يُعوّلون عليه كثيرًا؛ فقد كان له دور كبيرَ، لكنّ سعد لم يكن يتهاون في مثل هذه الأمور، فتعمّد سعد حبس هذه المجموعة في قصر "قديس"، ومنعها من الاشتراك في القتال بسبب اعتراضها..

استخدم الفُرْس في هذه المعركة سلاح الفيَلة، وهو سلاح فتّاك يُخيف الإنسان، وَيُفزع الخيول والإبل، التي لم تتعوّد على رؤيته.

## نصر حاسم وتغير مجريات الأحداث السياسية والعسكرية في المنطقة

انتهتْ المعركة بعدَ قتال شديد بين المسلمين والفُرْس، دام أربعةَ أيام وثلاثَ ليال بنصر حاسم للمسلمين، وقد ترتّب على انتصارً المسلَمين في القادسية نتائجُ مهمّة على مجريات الأحداث السياسية والعسكرية في المنطقة، وعلى سَيْر الدعوة الإسلامية فيها، ومن تلك النتائج ما يلي:

تُعدُ معركة القادسية من المعارك الفاصلة في تاريخ الشّرْق، فقد نَتَج عن انتصَار المسلمين في المعركة نتائجُ مهمّة على جوانب الحياة السياسية والدينية والمدنية في تاريخ الشّرْق بصورة عامة، وفي تاريخ الفُرْس على وجه الخصوص، فقد تقلّص نفوذ آل ساسان عن العراق، فباتَ إحدى الوحدات السياسية والجغرافية لخريطة الدولة الإسلامية.

قرّرت القادسيةُ مصيرَ العراق، ومصيرَ الدعوة الإسلامية فيه، فقد خضع خضوعًا مباشرًا لدولة الخلافة الراشدة، ممّا ساعد المسلمين على نشْر الدعوة الإسلامية، وإبلاغها للناس في العراق، فقد اعتنق الإسلام 4.000 من جُند رستم عَقب المَعركة مباشرةً، وكذلك وَفْد على سعد بنَ أبي وقاص كثيرٌ من قبائل العرب المقيمة على ضفاف الفُرات، فأعلنوا إسلامهم، وكذلك أسلمَ عددٌ من سكّان العراق ودهاقينه. كان انتصار المسلمين في القادسية بدايةً لانتصارات إسلاميّة لاحقة في المنطقة، كان من أهمها فتح المدائن في شَهر صفر سنة 16 هـ، ووقوع معركة جلولاء، وفتح حلوان في ذي القعدة من السّنَة نفسها.

كانت بلاد العراق التي فتَحَها خالد والمثنّى قد نقضتْ عهودها وذممها سوى أهل بانيقيا وبسما، وأهل أليس الآخرة، فلمّا انتصر المسلمون في القادسية عاَد الجميع، وادّعوا أنّ الفُرْس قد أجبروهم على نقْض العهود، فقَبل منهم المسلمون ذلك، وصدّقوهم تألفًا لقلوبهم، فصار أهل السواد من الفلاّحين وغيرهم أهلَ ذمّة وعهْد، وبذلك استتب الأمن في العراق، واَستقرّت الأوضاع العامة فيه، وصار دارَ إسلام وأمن وسلام.

غَنم المسلمون في معركة القادسية غنائمَ كثيرةً كان من ضمنها رايةُ فارس الكبرى (درفش كابيَان) وهي رايةٌ مصنوعة من جلود النمور، طولها اثنا عشر ذراعًا، في عَرْض ثمانية أذرع على خشب طوال موصول.